

"الانتفاضة الشعبية بين مطرقة الشغب وسندان الحكم"
سارة اليافي - النهار - ١٠ آذار ٢٠٢٠



نحن اليوم مجتمعون لنناقش الحالة المزرية التي وصل إليها لبنان ولنبحث في الحلول الممكنة. هذه الحال التي يتخبط بها لبنان تتجلى بالوضع الاقتصادي والمالي والنقدي الأكثر من كارثي، والفساد المستشري من رأس الهرم إلى أصغر مكتب في الإدارة اللبنانية، والبنى التحتية المهترئة، ونسبة البطالة المخيفة التي لامست الثلاثين في المئة وربما أكثر، والفقر الذي شمل أربعين بالمئة من الشعب اللبناني، والفكر المافيوبي الذي يتحكم بالأولغارشية الحاكمة؛ طبقة حاكمة تمنع الكهرباء عن المواطن لتسوّق مولداتها وبواخرها، وتحرمه من المياه لتبيعه من أبارها ومن خزاناتها، وتنهش من الجبال لتفرض كساراتها، طبقة أوبأت الناس بالسرطان بسبب مكباتها وهولوكوستها البيئي. وأفعالها هي التي أدت الى انتفاضة ١٧ تشرين وما تلاها من حراك شعبي غير مسبوق.

إذاً، ما هو جدول أعمالنا اليوم؟

بصراحة ومنذ آلاف السنين ثلاثة بنود هي على جدول أعمال الإنسانية اليومي ولم تتغير: جوع وأمراض وحروب. إذا قرأنا في أي كتاب عن أي حقبة من تاريخ العالم أو نظرنا إلى أي نقطة من عالمنا لوجدنا دوماً أناساً تعاني من الجوع وتموت من المرض وتهرب من الحروب. فالمجاعات والأمراض كانت تقضي على عشرين في المئة من المجتمعات بشكل منتظم، أما الحروب، ففي آخر ثلاثة آلاف وأربعمائة سنة، هناك فقط مئتان وثمانين وستون سنة لم تشهد حروباً! هذا يعني أن البشرية تقاومت تسعة أيام ونصف من أصل كل عشرة أيام من فجر وجودها حتى اليوم.

ربما تتساءلون: ماذا تقصدون؟

"المبادرة الوطنية ٢٠٢٠": من "اتفاق الطائف" إلى "١٧ تشرين"

العمالات اللبنانية في المأزق على الرغم من الألم الذي عانى منه الانسان منذ الأزل، لا بل كان خبزه اليومي، بالرغم من كل هذا، الشعوب لم تثر ولم تنتفض وهذا ما يصدم. فمن المقدر أنه في آخر مئة وعشرين سنة شهد العالم ثورات وانتفاضات بقدر ما شهدته البشرية من ثورات منذ ثلاثة آلاف سنة وحتى ذلك.

فالثورات قليلة جداً، ونادراً ما تحصل وما هو أقل منها هو الثورات الناجحة. نعم، إذا كانت الثورات نادرة، فإن الثورات الناجحة هي قل ما يحصل.

لذا، فمن الضروري أن نسأل، وخاصةً في ظلّ المناخ الثوري الاستثنائي الذي يعيشه لبنان اليوم: إذا كانت الثورات نادرة لهذه الدرجة، إذاً لماذا تحصل؟ واستناداً للعلم والتاريخ وهذا الأهم، ما هي أسباب نجاحها النادر أو فشلها؟

دعونا نوضّح أولاً كيفية تعريف الثورة. تُعرّف الثورة كعملية سلمية أو عنيفة هدفها إيصال أشخاص إلى الحكم عبر الإطاحة بالموجودين في سدة الحكم، وذلك لفرض العدالة الاجتماعية وبهدف إنشاء نظام جديد وإعادة هيكلة مؤسسات الدولة.

تقول الباحثة تيدا سكوتشبول، الأستاذة في جامعة هارفارد والمعروفة بكتابتها عن الثورات. أن هناك مفهومين شائعين خاطئين عن الثورة بشكل عام.

الأول هو فكرة تحكّم الدول الخارجية بالثورة: كل سلطة فاقدة للشرعية تلجأ إلى اتّهام المتظاهرين بالتعامل مع دول خارجية وخدمة مصالحها، لتتهرب من شعبها وتتجنّب مواجهة ومعالجة صلب الموضوع. هذه هي حقيقة كل السلطات التي تار شعبها ضدها؛ سلطات تردّ بالتهجّم على المتظاهرين وتصفهم بأنهم مندسّين وعملاء وفي خدمة الخارج. لماذا؟ لأن هذه الاتهامات تعطي السلطة الحاكمة الذريعة والشرعية لاستخدام القوة والعنف ضد المتظاهرين تحت حجة الدفاع عن أمن المجتمع والسلم الأهلي والوقوف بوجه التدخلات الخارجية.

الفكرة الخاطئة الثانية هي أن البؤس يولّد الثورات. عشرات الدراسات والكتب التاريخية تؤكد أن الفقر والتخلّف وغياب العدالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لا يولّدون ثورات. الحقيقة معاكسة تماماً لهذه المفاهيم: فمعظم الثورات تحصل في المجتمعات ذات الدخل المتوسط وليس في المجتمعات الفقيرة. على سبيل المثال، إحدى عشرة دولة انتفضت في أميركا اللاتينية في الفترة الممتدة بين أعوام ١٩٥٣ و ١٩٨٣. كانت كوبا من أكثر الدول المتطوّرة عندما أوصلت فيدل كاسترو إلى سدة الحكم. وكذلك الأمر بالنسبة للعشر دول الأخرى. أما ثلاث أفقر دول فلم تنتفض أبداً، وهي هايتي وجمهورية الدومينيك وهندوراس.

لماذا تحصل الثورات؟

إذا كان ليس من عادة الشعوب أن تنثور وليست التدخلات الخارجية هي الواقه وليس الفقر والبؤس من يدفعها لتثور، ما سبب حصول الثورات؟ هناك جواب علمي لهذا السؤال: النخب.

بحسب المؤرخين والمتخصصين بهذا المجال، لا ثورات دون النخب. نعم، النخب هي "الدينامو" الأول والوحيد وبدونها لا تتحرك المجتمعات. النخب هي التي تحتل المناصب العليا كافة في المجتمع. أكانت هذه النخب هي التي تنظّم وتحشد. إذا لم تنتفض النخب وبقيت متحالفة مع السلطة، بقيت السلطة في مكانها ولمدة عشرات ومئات السنين. أما إذا قررت النخب أن تنتفض وتحالفت مع الفئات الشعبية ضد السلطة، فبإمكانهم الإطاحة بالسلطة، وسيكون هذا التحالف بداية ثورة حتمية. وحدها النخب بإمكانها تحويل الفقر وعدم المساواة إلى ثورة. من المفيد لفت النظر إلى أن كاسترو كان محامياً وغيبارا كان طبيباً، أما الساندينيستا فكانوا حملة شهادات جامعية وشاغلي مناصب عليا في المجتمع، وأبرز قادة الثورة الفرنسية كانوا ماركيز وكونت وصحافي ومحامي وعالم رياضيات ورجل دولة. هذه الأمثلة تشمل ثورات كوبا،

نيكارغوا وفرنسا؛ ثلاثة أمثلة نادرة لثورات انتصرت وحققت أهدافها.

نعم، هكذا تبدأ الثورات: بتعبئة النخب. لكن نجاحها ليس حتمياً أو مضموناً لا بل هو نادر. ففي المائة وعشرين سنة الأخيرة حصل عدد كبير من الثورات، وعلى الرغم من أن العديد من هذه الثورات متشابهة ولديها قواسم مشتركة، لكن بعضها نجح وأغلبها فشل.

فما سبب نجاح الثورة؟

هناك ثلاثة مبادئ، هي خلاصة سنوات من الدراسات ومقارنة الثورات عبر العصور، تشكّل شروطاً أساسية لنجاح أي ثورة. ومن الضروري أن تأخذ الانتفاضة اللبنانية بعين الاعتبار هذه المبادئ الثلاثة وهي التالية:

أولاً، كل ثورة نجحت كانت قادرة على بناء تحالفات واسعة ضمن شرائح المجتمع المناهضة للسلطة في البلاد. تحالفات مكوّنة من سياسيين، ورجال دين، وتجار، ونخب، والطبقة المتوسطة، والطبقة العاملة، وحلفاء خارجيين. وكل ثورة فشلت لم تتمكن من تحقيق هذه التحالفات.

ثانياً، على الثورة الحصول على درجة من الشرعية الدولية. يجب على الثورة تأمين دعم واعتراف خارجي وبدونه لن تصل الثورة لمبتغاها. وهذا كان سرّ نجاح ثورتي كوبا ونيكارغوا، وسبب فشل كل الثورات في التسع دول الأميركية اللاتينية الأخرى.

ثالثاً، لكي تنجح، على الثورة أن تكون موجّهة ضد سلطة قمعية مافيوّية: "سلطة توتاليتاريّة متحكّمة بكل مفاصل الدولة والمجتمع وتقود نظاماً فاسداً قمعياً وغير شرعي وتستبيح قطاعات اقتصادية كاملة لنفسها ولشركائها وراعية لمصالحها الخاصة." هذا ما يقوله حرفياً الباحث روبرت دكس في كتابه "لماذا تنجح الثورات وتفشل"، وكأنه يتكلم عن لبنان اليوم.

بالتأكيد سبب نجاح الثورات ليس الناتج المحلي الإجمالي وليس نسبة العمال في القطاع الزراعي وليس نسبة التمّدن وليس نسبة الأمية وليس مستوى العنف المستخدم وليس توزيع الثروات وليس مستوى البؤس أو غيرها. سبب نجاح الثورات ليس اقتصادياً بل هو سياسي بامتياز.

ختاماً، فماذا ننتظر لنسيّس هذه الثورة؟

بإمكان هذه الثورة أن تدخل كتب التاريخ كإحدى أهم الثورات كما بإمكانها أن تمرّ مرور الكرام. دار نقاش كبير حول تصنيف ما يجري ضمن خانة الحراك أم الثورة. الجواب هو التالي: إذا اعتبرنا ان هدف الحراك الإطاحة بالحرس القديم الأوغارشي بغية بناء جمهورية جديدة في لبنان، فنحن أمام ثورة. النية موجودة، لكن هل النجاح مضمون؟ الجزء الأصعب حُقق وهو إطلاق التعبئة الشعبية، وهذا كما تعلمناه من تاريخ البشرية أمر نادر وصعب للغاية. أمّا الآن فعلى النخب والمجتمع المدني أن يستثمرا في تحالفات واسعة وطنية ودولية، وأن يتبنّوا رؤية سياسية جديدة تذهب أبعد من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية البحتة. على الثورة أن تنتج تيارات وأحزاب سياسية جديدة قادرة على أن تكتب رؤية سياسية جديدة ومختلفة للبنان.

إذا أصبحت هذه الثورة سياسية وبرأيي من المفروض والإلزامي أن تأخذ هذا المنحى بأسرع

وقت إذا أرادت الاستمرار، فعلى أي مبادئ ستضع برنامجها وتحدد أسس جمهورية ثالثة سليمة؟ هل الجمهورية الجديدة ستبقى ضمن نظام مركزي أو تنتقل إلى نظام لامركزي؟ ما هو مصير الذين في الحكم اليوم؟ ما هو مصير الأموال المنهوبة؟ ما هي الخطة المعتمدة لمعالجة مشكلتنا الاقتصادية والمالية والدين العام؟ ما هو النموذج الاقتصادي الجديد لضمان النمو المستدام؟ ما هي علاقتنا مع دول المنطقة؟ ما هي الاستراتيجية لمواجهة إسرائيل؟ ما هو مصير حزب الله وسلاحه؟ ما هو مصير اللاجئين السوريين والفلسطينيين؟ ما هي الاستراتيجية البيئية لتأمين مستقبل مستدام للبنان؟ إلخ...

على التعبئة الشعبية أن تتحول إلى ثورة سياسية منظمة. سيواجه هذا التحول ردود فعل وضغوطات جنونية إنما هذا هو الحل الوحيد للانتصار. علينا إنقاذ هذه الثورة. علينا ألا نستعين بالتغيير الذي حصل حتى الآن؛ بجدار الخوف الذي سقط، بالدعم الخارجي الذي نحظى به، بخوف السلطة من ثورة الناس، بانفتاح المناطق على بعضها البعض وتفاعل المذاهب فيما بينها.

العديد من الثورات الأخرى لم تكن قادرة على الوصول إلى هذا الحد. في نهاية المطاف تبقى إرادة شعب أراد أخيراً الحياة أقوى من تعجرف سلطة امتهنت تخيير شعبها بين مطرقة الشغب وسندان الحكم. دعونا نجعل من هذه الانتفاضة ثورة حقيقية.

كلمة في افتتاح ندوة "مؤسسة بيت المستقبل" عن الانتفاضة.